المحاضرة السادسة: الهوية في السياق الجزائري

تتكون الجزائر من تركيبة سوسيولوجية، تمثل انعكاس البعد الحضاري والتاريخي على البناء و السلوك الاجتماعي للأفراد، حيث أدى تنوع تركيبة المجتمع الجزائري إلى خلق تفاعل اجتماعي يمثل أحد أهم المواضيع التي تحتاج للدراسة والتمحيص. و التي لا يمكن لأي دارس فيها إغفال أمر المؤثر السوسيوتاريخي كعامل مهم في تكوين الهوية الوطنية.

أولا- البعد السوسيو تاريخي كمؤثر في بناء الهوية الوطنية:

يتفق المؤرخون أن البربر هم الأوائل الذين استوطنوا منطقة شمال أفريقيا، وجميعنا يعلم أن هذه البلاد كانت دائماً عرضة لغزو بلدان الضفة الشمالية للمتوسط بداية بالرومان و نهاية بالفرنسيين مروراً بالوندال والبيزنطيين والاسبان، طمعاً في ثرواتها، و محاولة مسح الهوية الشخصية الأمازيغية المتمثلة في اللغة والقيم والثقافة.

وهنا يمكن أن نشير إلى أن هذا الغزو، قد أثر على خارطة الجزائر وتركيبتها الاجتماعية، بالرغم من الجهود التي بذلها البربر، في التحرر والمقاومة، و التي تبين بأن البربر أمة واحدة كباقي الأمم التي أثبتت وجودها وحافظت على بقائها واستمراريتها.

تعود أولى بعثات الفتح الإسلامي إلى عهد عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه، الذي سمح لوالي مصر عبد الله بن أبي سرح بالخروج والزحف على ليبيا (6)، و في سنة 50 هجري أسس عقبة بن نافع القيروان؛ التي أصبحت قاعدة خلفية للفتح، وفي نفس السنة واصل أبو المهاجر دينار الفتح باتجاه الجهات الغربية (الجزائر حاليا) مروراً ببسكرة وصولاً لتلمسان، بالرغم من مقاومة قبيلة كسيلة البربرية، الذي هزم و أسر.

أبدى الأمازيغ ترحيباً كبيراً بالمسلمين، وبدأوا في اعتناق دين الإسلام، لعدة أسباب أهمها معاني الإسلام وأخلاق فاتحيه وانصهارهم، و القضاء على الاحتلال البيزنطي، و صاحب هذا الاعتناق الإقبال على العربية و الجهاد في سبيل الله، و لهذا ساهم البربر بشكل كبير في فتح الأندلس، وأصبح طارق بن زياد الأمازيغي، قائدا للجيش الفاتح مما يؤكد تمازج الشعبين وانصهارهم في وعاء واحد اسمه المجتمع المسلم بعيداً عن التعصب مثل بلاد الفرس، مما يؤكد على وجود بوادر تشكل الهوية المحلية، نتيجة تمازج البعدين الإسلامي العربي والإسلامي الأمازيغي.

وعلى الرغم من كل ما حققه العرب والبربر من فتوحات، إلا أن هذه الرقعة الجغرافية التي كانت تتقاسمها دويلات صغيرة ومتزاحمة كانت عاجزة امام تحرشات اسبانيا المسيحية التي سيطرت على المرسى الكبير وهران و حاولت احتلال بجاية وجيجل و الجزائر، لولا وصول العثمانيين.

إن أساليب الحكم العثماني القائمة على الضرائب والتمييز العنصري والمفاضلة بين القبائل والارتكاز على رجال لا يتمتعون بأي تأصيل و لا جذور لهم في البلاد للحكم ؛قضت على الشعور بالانتماء، وبالرغم من أن الوعي القومي و الشعور بالانتماء إلى وطن واحد كانا موجودين، إلا أن الواقع المعاش المفروض على الشعب يقول عكس، لأن الشعور بالانتماء كان يرتبط بالعائلة، أو الرابطة اللغوية (عرب - بربر - أتراك) ، ذلك أن الوعي القومي و اللغة والدين لم تتبلور كمكونات للهوية الوطنية، إلا داخل حلبة الصراع ضد فرنسا .

من هنا يكون المستعمر الفرنسي، قد لعب دورا كبيرا في رسم ملامح الهوية الجزائرية المكانية، وكان سببا في ظهورها . و يمكن أن نميز بين ميزتين أساسيتين للهوية الوطنية أثناء فترة الاستعمار الفرنسي أولها محاولة تشويهها و محوها للقضاء على المقاومة، والثانية استعملت من الجانب الجزائري، كوسيلة شحن لنفسية المجتمع ضد المستعمر الفرنسي.

ثانيا- ثوابت الهوية الوطنية الجزائرية:

فيما يخص الثوابت الوطنية للهوية الجزائرية، فقد لخها الشيخ عبد الحميد بن باديس في شعار " الإسلام ديننا و العربية لغتنا والجزائر وطننا" الذي يلخص جهود جمعية العلماء المسلمين منذ 1931، في الوقوف أمام المخطط الاستعماري الفرنسي الذي يهدف إلى استئصال كل المقومات الثقافية والحضارية والدينية للشعب الجزائري، وفي مقدمتها الدين واللغة وتغييب تام لوطن اسمه الجزائر.

1-الدين والبعد الإسلامي: يشكل الدين المكون الأساسي لشخصية و هوية الأمم فهو ظاهرة تاريخية صاحبت الإنسان منذ ظهوره على وجه الأرض، وباعتبار الدين الإسلامي آخر الديانات السماوية و الناسخ لها، و على أساس انه رسالة الله إلى العالم عبر العرب، فقد اتخذت الأمة الإسلامية منه شعار دساتيرها و مواثيقها، والجزائر إحدى هاته الأمم التي جعلته أهم مقوم للشخصية الوطنية، كما حض عليه دستور الدولة وصانته قوانينها .

أما المواثيق الوطنية التي شددت على ثقل الدين الإسلامي كمركب للهوية فهي كثيرة منها: نص الميثاق الوطني سنة 1976 الذي نص على أن الشعب الجزائري مسلم والإسلام دين الدولة، وهو أحد أهم المقومات الأساسية لشخصيتنا التاريخية (4) و هو هوية للشعب و الدولة ووسيلة لتوحيد جميع الأطياف والفئات كما جاء في ميثاق 1986 .... صهر الإسلام المجتمع الجزائري فجعل منه قوة بالمعتقد الواحد، و باللغة العربية التي مكنت الجزائر من استئناف دورها في العامل الحضاري (5) و جعلت من الدين وسيلة لتحقيق الوفاق والإجماع على أساس أنه وسيلة و عامل من عوامل تحقيق " الاستقرار، وهذا ما جسدته مجمل الطرق القانونية المسيرة للشؤون الدينية .

2-اللغة العربية والامازيغية والبعد العرقي واللغوي: تعتبر اللغة من بين أهم ثوابت و أبعاد الهوية الوطنية، ولا يختلف اثنان حول الجذور التي ينتمي إليها الجزائريون بإنتمائهم إلى العرق البربري الامازيغي و العربي الإسلامي اللذان امتزجا بفضل الدين الإسلامي منذ 14 قرنا مشكلين بذلك مجتمعا واحدا و مترابطا، وإن اختلفت بعض العادات والتقاليد، التي قد تؤثر إيجابا من حيث الثراء الثقافي لا غير. وعلى الرغم من محاولات الاستعمار الفرنسي، كما سبق و أشرنا في البعد السوسيو تاريخي للهوية الجزائرية معاملة الجزائريين بأسلوب الثنائية؛ أي عرب وأمازيغ لطمس هوية الجزائريين، وإثارة النزعة العرقية التي أذابها مع مرور الزمن الانتماء إلى الإسلام والولاء إلى الوطن الواحد.

أما اللغة العربية باعتبارها لغة الدين الإسلامي، واللغة ذات البيان والبلاغة الكبيرة كانت الأقرب لتمثل الجزائريين، في وقت توجب على الكل الالتفاف حول لغة واحدة في وجه لغة المستعمر، وجاء اهتمام الدولة باللغة العربية وجعلها اللغة الرسمية، لأنها شكلت حلقة الصراع الحضاري مع اللغة الفرنسية أيام الاحتلال، وكانت لغة الجزائر في وجه جهود المستعمر الإدماجية، ومن مظاهر الاهتمام القانوني بالغة العربية؛ كموروث ثقافي وحضاري ومكون للهوية الجزائرية، اتخاذها لغة رسمية منذ أول دستور سنة 1963.

إن الاهتمام بالغة العربية ليس إقصاء للامازيغية ولا محاولة لتغيبها ولا إهمالها، إنما هو انعكاس لواقع اجتماعي تاريخي قديم من جهة، ومحاولة الحفاظ على مكتسبات الدولة في ظل الموروث الفرنكوفوني المسلط على رقبة المجتمع الجزائري، وجهود دعاة التفرقة العرقية وأعداء الوحدة الوطنية من جهة أخرى.

ولعل اهتمام الدولة بالامازيغية والاعتراف بها كلغة وطنية في الدستور، وإدراجها ضمن البرامج التعليمية في المنظومة التربوية دليل على البعد الثقافي الأصيل للإسلام من جهة، ورد على دعاة الفتنة من جهة أخرى. فقد حمل دستور 2002 في المادة الثالثة اعترافا بالأمازيغية كلغة وطنية، تعمل الدولة على ترقيتها وتطويرها، كأحد الثوابت الوطنية.

3-الثقافة والبعد الوحدوي: الهوية الوطنية هي بنت الثقافة وحدها، و هي جميع السمات المادية والفكرية والروحية والعاطفية التي تميز مجتمعا بعينه، أو فئة اجتماعية بعينها. وهي تشمل الفنون والآداب وطرائق الحياة، كما تشمل الحقوق الأساسية للإنسان، و نظم القيم و المعتقدات والتقاليد. والجزائر تزخر بتنوع ثقافي، ينعكس على البناء الاجتماعي، فنجد الوعاء العام للثقافة واحد وهو الدين. أما اللغة كوسيلة للتواصل و التبادل الثقافي، فنجد إلى جانب العربية، الأمازيغية التي تتفرع إلى عدة لهجات.

ثالثا- المجتمع بين الولاء للهوية، والتأثير الأيديولوجي:

1-الهوية وتحديات الأزمة البربرية:

تعود جذور الأزمة البربرية إلى أيام الحقبة الاستعمارية، التي اذكت روح التفرقة لأغراض مصلحيه خاصة فالاختلاف العرقي بين العرب والبربر ؛ وتر عزفت عليه فرنسا من اجل تحقيق سياسة فرق تسد.

هذه الأفكار تجددت على الساحة مع منتصف القرن 20 وتحديدا 1980 فيما اصطلح عليه "الربيع الأمازيغي"، وجاء رد الفعل الرسمي من خلال الاعتراف بالامازيغية كمقوم من مقومات الهوية إلى جانب العروبة والإسلام، وهذا لقطع الطريق أمام أي محاولة لإحداث الفتنة.

2-الهوية الوطنية وتحديات الأفكاروالحزبية والإيديولوجية:

تعتبر ظاهرة التعددية الحزبية نتاج التعديل الدستوري 1989 -لكن الظاهرة تعود إلى ما قبل الاستقلال حيث تميز الطابع النضالي للحركة الوطنية بالتعددية وتنوع أفكارها الإيديولوجية-،ومن أهم التمثيلات السياسية الناتجة : التيار الإسلامي العربي، التيار العلماني، التيار الثوري.

أخيرا، يمكن القول أن الهوية الوطنية الجزائرية عرفت تحديات كبيرة أثناء الاستعمار وبعده لكن في الحقيقة، سيكون من المناسب أكثر الحديث عن تنوع وثراء ثقافي انصهر في شخصية وطنية جزائرية أكثر منه تنوع صراع وانقسام؛ لأن عوامل الامتزاج والانصهار عبر التاريخ كانت دوما أقوى من دعاوى التفتيت والتفرقة العصبية.